المحاضرة الخامسة: المنهج العلمي

1-مفهوم المنهج العلمي:

أثناء اعداد البحث العلمي يتبع الباحث مجموعة من الخطوات التي تبدا بتحديد دقيق للمشكلة او الظاهرة، ثم تجميع الحقائق المرتبطة وتحليلها وتفسيرها، بغرض استنباط نتائج واجابات موضوعية ودقيقة لإشكالية البحث، إذ تتحدد طريقة اختيار وتنظيم اجراءات واساليب البحث وادواته في اطار المنهج المعتمد.

وخاصة ان هناك اختلاف كبير بين الباحثين والمفكرين في تصنيف وتمييز مناهج البحث العلمي، ويعود ذلك الاختلاف الى التباين في تحديد طبيعة ومفهوم المنهج، والى تعدد التوجهات العلمية والفكرية والأيديولوجية للباحثين واختلاف وجهات نظرهم في كيفية تصنيف وتمييز هذه المناهج، إضافة الى اختلاف اسس ومعايير التصنيف ذاتها، كما تختلف بحسب اختلاف مجالات وطبيعة العلوم المستخدمة لهذه المناهج، فهناك مناهج تستخدم في علم ولا يمكن استخدامها في علم آخر. ولتوضيح وتبيان اهم المناهج الموجودة والمعتمدة في ميدان علم المعرفة والمطبقة في البحوث العلمية.

ولقد أصبحت مناهج البحث العلمي النظرية منها والتطبيقية، سواء في مقارباتها الكمية أو الكيفية أو حتى المختلطة، خاصة في تاريخنا المعاصر، بمثابة المداخل الأساسية التي يتعين على الباحث أو المختص اعتمادها في عملية جمع المعلومات والبيانات النظرية والميدانية، ومن ثم تصنيفها، وتحليلها ونقدها بهدف تنظيرها أو تقنينها إن أمكن، وهذا وفق المتطلبات المنهجية أو "الإيديولوجية" أو هما معا. في الواقع، فرضت مناهج البحث العلمي نفسها على خريطة البحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية رغم المشاكل الابستمولوجية العديدة المصاحبة أو الناجمة عنها، على مستوى العالقات الجدلية ما بين النظرية والتطبيق أو على مستوى أخلاقيات البحث العلمي في عملية توظيف هذه المناهج في دراسة الظواهر أو المشكلات الاجتماعية.

المقصود ب منهج البحث: هو الطريقة المتبعة لتقصي الحقائق وإدراك المعارف، أو هو الصيغة أو الأسلوب المتبع في ترتيب الأفكار وعقلنة الفرضيات وإخضاعها للامتحان والتحليل بما يضمن التوصل إلى نتائج معرفية جديدة.

أو هو "فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار من أجل الكشف عن حقيقة مجهولة لدينا أو من أجل البرهنة على حقيقة ال يعرفها الاخرين.

هو الطريقة التي تتبع للكشف عن الحقائق بواسطة استخدام مجموعة من القواعد العامة ترتبط بتجميع البيانات وتحليلها حيث تصل الى نتائج ملموسة.

قبل الحديث عن أنواع المناهج تجدر الإشارة إلى أنه يجب التذكير بأهمية التمييز بين تصنيف البحوث وتصنيف المناهج.

وقد سبقت الإشارة إلى تصنيف البحوث، والتنويه بأن المنهج جزء رئيس من البحث العلمي، يبقى أن نشير إلى أن "البحث يشير إلى نوع الدراسة بأكملها التي ينخرط فيها الموضوع قيد البحث وفق الهدف المرسوم الذي هو بمثابة الموجه للعمل كله"، في حين أن المنهج عبارة عن "مجمل الطرق العملية المتبعة قصد الإجابة على تساؤلات الدراسة أو التحقق من فروضها، ولذلك فإن البحث الواحد قد يتضمن أكثر من منهج."

ومن التصنيفات الشائعة للمناهج ذلك التصنيف الذي يتأسس من حيث طرق وأنماط الاستدلال المتبعة في الدراسة، وفي هذا الصدد فهناك المنهج الاستقرائي والمنهج الاستنباطي.

وإذا تم التصنيف انطلاقا من نوع المعطيات التي يتعامل معها الباحث ويسعى لتحليلها للإجابة على تساؤلات الدراسة أو التحقق من فرضياتها، فنحن في هذه الحالة بصدد المنهج الكمي والمنهج الكيفي.

المنهج هو الطريقة للوصول للهدف وقد اتفق العلماء على منهج شامل للمنهج وهو مجموعة من العمليات المتفق عليها والتي تتبع للوصول الى الهدف كما هو انه مجموعة المعايير والمبادئ التي يقوم عليها كل بحث منظم والتي تسمح باختيار وتنسيق التقنيات.

فالموضوع المدروس هو الذي يفرض علينا نوع التحليل الواجب اتباعه، وفي هذا تقول مادلين غرافيتز " أي محاولة للقياس أو التحليل ترتبط أصلا بطبيعة المعطيات التي تم جمعها، وأنماط المعلومات التي تحتويها من حيث كونها: آراء أو وقائع. ومن جهة أخرى يرتبط ذلك

بالإجراءات المتبعة للحصول على هذه المعطيات: مقابلات، اختبارات. وأخيرا يرتبط الأمر بالمناهج المتعبة من أجل تحليلها.

العلاقة بين المنهج والتقنيات أي ادوات البحث: التقنية تمثل مراحل اجرائية محددة من البحث مرتبطة بعناصر تطبيقية ملموسة وترتبط بغرض محدد في حين ان المنهج هو تصور فكري شامل يربط بين مجموع الإجراءات التي تشمل في العموم مجموعة التقنيات.

الفرق بين المنهج والتقنية:

- المنهج يكون شامل للبحث من البداية الى النهاية، بينما الاداة او التقنية فيرتبط تطبيقها بمرحلة معينة من مراحل البحث.
- يعطي المنهج الصيغة العامة للبحث فادا كان المنهج تاريخي. نقول البح تاريخي، بينما التقنية ليس لها هده الميزة.
- طبيعة الموضوع هي التي تحدد نوع المنهج المتبع. بينما نوع المعلومات هي التي تحدد تقنيات البحث.

2-المنهج الكمي والمنهج الكيفي في العلوم الاجتماعية:

تنقسم مناهج البحث في علم الاجتماع إلى نوعين رئيسين: كمية وكيفية. وتستخدم المناهج الكمية في انتاج بيانات عددية أو إحصائية، أي يرتبط مفهوم هذا المنهج بالكم أو الوصف ومدى قابلية الظواهر محل الدراسة للقياس. بينما المناهج الكيفية بصفة أساسية في إنتاج بيانات حول الخبرات والمعاني الشخصية للفاعلين الاجتماعيين. وتعتمد هذه المناهج في العادة على لغة الفاعل الاجتماعي أو على ملاحظة سلوك الفاعل.

يُعنى المنهج الكمي Méthode quantitative بالمعطيات التي تتضمن عناصر متماثلة بحيث يمكن مقارنتها وإحصائها وقياس معطياتها كميا، ويمكن أن تتمثل هذه العناصر في أفراد أو جماعات أو هيئات. وإذا كان المنهج الكمي يسعى لقياس الظاهرة المدروسة فإن المنهج الكيفي Méthode qualitative يسعى لفهم الظاهرة، وهو لذلك يستعمل مجمل الإجراءات من أجل وصف الظاهرة وتشخيصها .

يقع المنهج الكيفي Method Qualitative عموماً في اطار المنهج التحليلي Method Analytical Theالمتسم بالعمومية والشمولية، على اعتبار أنه يمكننا القول بوجود تحليل كيفي وآخر كمي أو مقارن.

إذن، مصطلح البحوث الكيفية مصطلح شامل يحتوي على أنماط مختلفة من البحوث في علم الاجتماع منها البحوث الاثنوجرافية، ودراسة الحالة، والبحوث الميدانية، والبحوث الطبيعية (التي تجري في مجال طبيعي)، وبحوث الملاحظة بالمشاركة. وتختلف هذه البحوث عن بعضها البعض في أسسها الفلسفية والتحليلية، إلا أن بينها جميعاً عدداً من المظاهر المشتركة تضعها في تصنيف واحد مقارنة بالبحوث الكيفية.

بينما إن البحث الكمي يعتمد إلى درجة كبيرة على تقنين البحوث الميدانية، فتكون أسئلة الاستبانة وكذلك الإجابة محددة مسبقاً. أما المقابلات الكيفية فهي أكثر مرونة، وتتكيف مع الحالات المختلفة.

وهنا ينبغي الاشارة الى ان عملية اختيار المنهج المناسب وادواته وكيفية تطبيقه مرهونة بموضوع الدراسة وطبيعة اشكالية البحث المطروحة وهدفه، حيث لا يمكن الجزم بصفة عامة أي المنهج والادوات والعمليات الاكثر ملائمة لموضوع او مجال دراسة معين، الا انه يمكن التمييز بين مناهج بحث عامة مشتركة بين كافة العلوم، كما هو الحال بالنسبة للمنهج الوصفي والتجريبي ودراسة الحالة والمقارن، وهناك مناهج بحث خاصة اي تختص بمجال او ميدان دراسة معين دون بقية العلوم الاخرى.

كما ينبغي على كل باحث أن يعلم أن عملية تطبيق واستخدام واختيار المنهج المناسب للدراسة تتوقف على مهارات الباحث ومدى فهمه لإشكالية بحثه والمناهج العلمية ومتطلباتها، كما أن تلك العلميات كلها ليست نهائية ولا هي مثالية فبإمكان أي باحث المساهمة في تطويرها سواء من حيث المضمون أو من حيث طريقة التطبيق، علما انه وعبر مراحل تطور الفكر البشري فان المناهج التي تحكم الجهود الفكرية والدراسات المختلفة تتحدد في إطار الاديولوجية السائدة في المجتمع أو على مستوى البشرية، وعليه فلا ينبغي القول أن المنهج معين هو الأمثل فكل حالة لها خصائصها ومتطلباتها تتميز من حيث طبيعة المنهج والأدوات المستخدمة وطريقة التطبيق والاستخدام لتلك المناهج.